

محاضرات في

تاريخ الادب العربي قبل الاسلام

نظرية الانتحال

أصل النظرية عربية ، حيث ذكر ابن سلام (ت ٢٣١هـ) في كتابه طبقات فحول الشعراء ، قضية الانتحال في الشعر الجاهلي فأرجعها إلى سببين :
الأول : عامل القبائل التي كانت تزيد من شعرها لتزيد من مناقبها ، يقول لما راجعت العرب رواية الشعر ، وذكر أيامها ، ومآثرها استقلت بعض العشائر شعر شعرائهم ، من ذكر وقائعهم . وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له من الوقائع والإشعارات فقالوا على السنة شعرائهم ثم كانت الرواة فزادوا في الأشعار .
ويذكر الدكتور شوقي ضيف أن القبائل أخذت تزيد في شعرها وتنسبها إلى شعراء لم يقولوه . وقد أضافت قريش شعراً كثيراً إلى شعرائها . لأن حظها من الشعر قليل ، فقد أضافت شعراً إلى حسان بن ثابت . وقد أشار ابن سلام إلى ذلك مرات عديدة ، وقد روي إن أبناء الشعراء وأحفادهم من كان ينحل الشعر ، فهذا ابن داود بن متمم بن نويرة لما سألته أبو عبيدة عن شعر أبيه بدأ يقرأه فما نفذ شعر أبيه ، بدأ يقرأ شعراً مغايراً لما قاله ، وبهذه الطريقة حاولت قريش أن تزيد من شعرها لترفع من مآثرها .
العامل الثاني : عامل الرواة الذين انتحلوا الشعر ونسبوه إلى شعراء آخرين . والأسباب التي دعت هؤلاء الرواة إلى انتحال الشعر وهي أسباب دينية ، وسياسية ، وحزبية .

والرواة عند ابن سلام طبقتان :

الأولى : طبقة مثقفة مثل حماد الراوية ، وخلف الأحمر ، وجناد ، هذه الطبقة استطاعت أن تتطلع على قدر كبير من أشعار العرب وأيامهم وأمجادهم ، ومآثرهم بحيث تمكنت بثقافتها الواسعة بالشعر أن تصنع شعراً ، أو تنتحلها ، وتنسبه إلى شعراء آخرين .
الطبقة الثانية : طبقة غير مثقفة ، وهما ابن إسحاق وعبيد بن شريفة . وهذه الطبقة لا شأن لها بالشعر ، لا تستطيع نظمها ولا صياغته ، غير أنها تروي كل غثٍ وسمين ، وتنسبه إلى أقوام غريقة في القدم ، وإلى شعراء آخرين ، حتى أن ابن سلام يقول عن ابن إسحاق : ((وكان ممن افسد الشعر وهجنه)) .

أما عبيد بن شريفة فمثله مثل سلفه في نحل الشعر ، ورفض ابن سلام والأصمعي ، واضرا بهما رواية الطائفتين جميعاً ، فلم يقبلوا شيئاً مما يرويه أشباه حماد . ويلاحظ أن أكثرهم من أصول غير عربية ، وكلهم فاسق ماجن رقيق الدين فاسد الضمير .
والى جانب الطائفتين طائفة الرواة الثقات لا شك في ثقتهم وأمانتهم ، من مثل المفضل بن محمد الضبي ، والأصمعي ، وشيخ الرواة أبي عمرو بن العلاء من أئمة اللغة والأدب ، واحد القراء السبعة ، ولد بمكة ونشأ بالبصرة ومات في الكوفة سنة (١٥٤هـ) هؤلاء الثقات الرواة عرفوا غث الشعر العربي وسمينه ، ووضعوا أيديهم على صحيحه ومنحوله .
وقد نبه ابن سلام على الرواة الكذابين ، كحماد الراوية ، ورفض مروياته وبيان فساد مروياته وحذر منه ، وذكر صنفاً آخر من الرواة ، كانوا يحملون الشعر الزائف وهم رواة

السيرة والأخبار ، وأشار إلى ابن إسحاق ، وتناوله بالنقد والتجريح ، ولم يرض ابن سلام عذره بأنه لا علم له بالشعر أوتي به فحمله .
وقد أثّرت قضية الانتحال في العصر الحديث ، وتناولها المستشرقون والعرب ، ومن هؤلاء المعتدل المنصف ، ومنهم المشتط المسرف المتحامل ، وقامت مناقشات وكتبت ردود . واهم من كتب في الموضوع سنتناوله بإيجاز شديد :
لقد أشار بلاشير إلى قضية الانتحال ، وتطرق إلى آراء المستشرقين في هذه القضية ، وذكر انه أول من نشر بحثاً يخص الموضوع (نولدكه) ، سنة ١٩٦٤ ، وبين فيه ما يعتو الشعر الجاهلي من الشكوك ، وبعد ثماني سنوات تناول القضية (اهلوارد) الذي نشر دواوين الشعراء الستة الجاهليين ، ديوان امرؤ القيس ، و عنترة ، والنابغة ، وزهير ، وطرفة ، وعلقمة . وقد طعن في الشعر الجاهلي بصورة عامة وتوصل إلى المبدأ الآتي :
" إن القصائد المروية غير موثوق بصحتها ، سواء من ناحية المؤلف ، أم الظروف ، أم النظم ، أم ترتيب الأبيات ، ثم توصل إلى انه يجدر بنا أن ننخل دواوين الشعراء الستة ، ونمعن النظر فيها ، ونلقي الضوء عليها ، لتتوصل إلى أن عدداً من القصائد صحيحة ، ولكن الشك يخيم على ترتيب الابيات ، ونوعية كل بيت " .

ولعل المستشرق (مرجليوث) أكثر من أثار عاصفة هوجاء عن قضية الانتحال في الشعر الجاهلي ، حيث نشر بحثاً مفصلاً في مجلة الجمعية الملكية سنة ١٩٢٥ ، عنوانه " أصول الشعر العربي " .
ولقد أشار الدكتور نصر الدين الاسد والدكتور شوقي ضيف الى نظرية الانتحال ، ووضحاً معاً الأدلة التي جاء بها مرجليوث ويمكن أن ندرج الأدلة فيما يأتي :

١- لقد اعترف مرجليوث بوجود الشعر الجاهلي ، حيث إن القرآن الكريم جاء بسورة تسمى "سورة الشعراء" وان هناك نخبة من الكهان كانوا يسمون بالشعراء ، غير انه يشكك بهذا الشعر .

٢- يشير هذا المستشرق إلى بداية الشعر العربي ، ونشأته فيذكر أن هذه النشأة في غاية الغموض حيث أن بعض المصادر عزت شعراً لآدم ، وقصائد غنائية إلى عهد إسماعيل ، غير أن الرأي السائد بخصوص الشعر الجاهلي انه عرف قبل الإسلام بقرون قليلة ، ومن يذهبون هذا المذهب يقرون مهلهلاً وامراً القيس وقد أوردوا شعراً لشعراء سبقوهم بزمان طويل ، وإنهم قالوا شعراً حتى أصبح لهم أتباع ومقلدون ، وان هؤلاء الأتباع والمقلدين ، هم أصحاب المعلقات العشر ، وغير أصحاب المعلقات .

٣- ثم أن هذا المستشرق يفترض وجود الشعر الجاهلي ، ثم يستدرك فيذكر انه كيف حفظ هذا الشعر ؟ ومما لا شك فيه انه حفظ عن طريق الرواية ، والكتابة ، ثم يشكك في الرواية وينفي الكتابة .

٤- يطعن هذا المستشرق في الرواة كحماد الراوية ، وخلف الأحمر ، وجناد ، حيث أنهم وضعوا شعراً كثيراً ونسبوه إلى شعراء جاهليين ، لأسباب شعبية ، وسياسية ، ودينية .

ويذكر الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور شوقي ضيف أن هذا المستشرق يحاول أن يعضد آراءه الخارجية بآراء داخلية نستطيع أن ندرجها بما يأتي :

١- يذكر أن الشعر الجاهلي لا يمثل الجاهليين بحق ، فهو لا يمثل وثنياتهم ، كما انه لا يمثل الديانات القديمة كاليهودية والمسيحية ، فه لا يتطرق إلى التثليث عند المسيحيين ، وإنما

هو يمثل القصص القرآني ، وما جاء به الإسلام من تعاليم بعدئذٍ ، وهو يريد أن يفصح بأن هذا الشعر يمثل المسلمين كما نص عليه القرآن الكريم ، فهو يمثل فترة لاحقة ، لا سابقة .

٢- ثم ينتقل هذا المستشرق إلى اللغة ، فيذكر أن لغة الشعر هي لغة القرآن ، وأن هذا الشعر لا يمثل لهجات القبائل المتعددة وأنه لا يمثل الاختلافات بين لغة القبائل الشمالية العدنانية واللغة الحميرية القحطانية في جنوب الجزيرة ، بل لا يمثل اللهجات الشاذة التي كانت منتشرة عند قبائل العرب كافة .

٣- ومن الأدلة التي أثارها هذا المستشرق موضوعات القصائد الجاهلية فيذكر أنها تمثل موضوعات معينة تتكرر في جميع القصائد ، الأمر الذي يحمل هذا المستشرق على الاعتقاد أنها نظمت بعد نزول القرآن لا قبله ، يريد أن يوضح أن الشعر الجاهلي لا يمثل حياة الجاهليين ، وإنما يمثل حياة العرب بعد الإسلام .

٤- ولعل آخر الأدلة التي ذكرها ، إن النقوش المكتشفة في الممالك الجاهلية في اليمن ، هي ممالك متحضرة ، لها نصيبها من الثقافة ، لا تدل على وجود شعر فيها ، فكيف يصح لبدو غير متحضرين أن ينظموا شعراً مثل هذا الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا .

مناقشة آراء مرجليوث

لقد أشار هذا المستشرق نفسه إلى أن القرآن الكريم قد ذكر وجود الشعر الجاهلي وافرد سورة خاصة به هي سورة الشعراء غير أن وجود هذا الشعر امر مشكوك فيه لأنه جاء على لسان الرواة شعر لأدم (ع) ولأقوام غريقة في القدم ومثل هذا الشعر ينفي ابن سلام الجمحي نفسه ومن هذا حذوه كالاصمعي وصحبه - أعني المفضل الضبي وعمرو بن العلاء هؤلاء الثقات من الرواة يقفون من الشعر الجاهلي موقف التحفظ والمحترس ولا يأخذون به جملة ، وإنما وضعوا أيديهم على ما هو صحيح وما هو منحول .

أما أن هذا الشعر كيف حفظ :

فحفظ عن طريق الرواية ، والرواية مؤكدة ومعتمدة زد إلى ذلك سندها المتصل ، لأن العرب يعدون الشعر ديوانهم فهو يمثل حياتهم تمثيلاً حقيقياً ، لذلك عنوا بالرواية أيما عناية .

أما تشكيكه في بعض الرواة أمثال حماد وخلف وجناد فأمر مسلم به من مؤرخي العرب أنفسهم ، فإذا عضدت رواية حماد أو خلف أو جناد لقصيدة من القصائد من أحد الرواة الثقة الذين أشرت إليهم فهي صحيحة ، وإذا كانت غير ذلك فتضرب القصيدة عرض الجدار .

وقد ناقش الدكتور شوقي ضيف آراء هذا المستشرق مناقشة علمية جديرة بالإشارة : فقد علق على قوله بأن الشعر لا يمثل حياة الجاهليين من وثنيين ، ونصارى ، ويهود ، وديانات أخرى ، فأشار إلى كتاب الأصنام الذي يطرح نماذج كثيرة من الشعر الجاهلي تصف حياة الجاهليين على اختلاف معتقداتهم ، ونحلهم ، وهذا ما ينفي الزعم نفياً قاطعاً . أما موضوع لغة هذا الشعر فهي لغة القرآن قبل نزوله ، أو قل لغة قريش ، لأن لغة قريش في العصر الجاهلي هي التي سادت على جميع لهجات العربية لأسباب دينية ، واقتصادية ، وسياسية ، لذلك راح الشعراء ينظمون شعرهم بهذه اللغة ، أما أن الشعر

الجاهلي لا يمثل لغة الجنوب لغة حمير فهذا صحيح ، لان هذه اللغة أكل الدهر عليها وشرب ، وأصبحت لغة قديمة لا نعرف عنها شيئاً حتى أن أبا عمرو بن العلاء قال : " ما لسان حمير ، وأقاصي اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا " .

ولعل الدليل الأخير الذي أشار إليه الدكتور شوقي ضيف من أدلة هذا المستشرق ، هو موضوع المكتشفات الجديدة في اليمن التي لا تفصح عن وجود شعر ، علماً إن اليمن أو قل الدول العربية التي كانت باليمن قديماً وهي متسمة بشكل أو بآخر بالحضارة والثقافة ، فإذا كانت هذه الدول أو قل أصحابها لا ينظمون الشعر ، فكيف يصح لبدو لم يكن لهم نصيب من الحضارة أن ينظموا الشعر ؟ فردّه " برونلن " حيث ذكر أن نظم الشعر لا يرتبط بالعوامل الثقافية أو الحضارية فهناك قوم مثل الاسكيماو لهم شعر كثير ، ولم يكن لهم نصيب من الثقافة أو الحضارة .

الانتحال في الشعر الجاهلي عند العرب المحدثين

لقد أشار الدكتور شوقي ضيف ، والدكتور ناصر الدين الأسد إلى قضية الانتحال عند العرب المحدثين ، ولعل أول من كتب عن هذه القضية هو مصطفى صادق الرافعي في كتابه " تاريخ آداب العرب " ويستطيع المتتبع أن يوجز آراءه كما جاءت في كتابه فيما يأتي :

١- القبائل : لقد صنعت القبائل الأشعار ونسبتها إلى غير أهلها ، وخاصة القبائل التي قلت وقائعها وأشعارها ، وكانت أول القبائل التي وضعت الشعر في الإسلام هي قبيلة قريش ، فقد وضعت على حسان أشعاراً كثيرة .

٢- شعر الشواهد : وهو النوع الذي يدخل فيه أكثر الموضوع لحاجة العلماء إلى الشواهد في تفسير الغريب ومسائل النحو ، والكوفيون أكثر الناس وضعاً للأشعار .

٣- الشواهد : هناك ضرب من الشواهد وهو ما ولده بعض المعتزلة والمتكلمين للاستشهاد به على مذاهبهم .

٤- الشواهد على الأخبار : فلما كثر القصاصون وأهل الأخبار اضطروا من أجل ذلك أن يصنعوا الشعر لما يلفقونه من الأساطير حتى يلائموا بين رقعتي الكلام ، فوضعوا من الشعر على آدم من دونه من الأنبياء وأولادهم وأقوامهم .

٥- الاتساع في الرواية : وهو سبب من أسباب الوضع ، يقصد به فحول الرواة أن يتسعوا في رواياتهم ، فيستأثروا بما لا يحسن غيرهم ، لذا يضعون على فحول الشعراء قصائد لم يقولوها ويزيدون في قصائدهم التي تعرف لهم ، ورأس هذا الأمر حماد الراوية ، الذي قال عنه المفضل الضبي " سلط على الشعر من حماد الراوية ما افسده ، فلا يصلح أبداً " .

الدكتور طه حسين :

إن ما توصل إليه الدكتور طه حسين وذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهلين وأكاد أشك في أن ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جداً لا يمثل شيئاً ، ولا يدل على شيء ، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي .

أما الأسباب التي ذهب إليها الدكتور طه حسين في انتحال هذا الشعر نستطيع أن ندرجها باقتضاب :

اولا : السياسة ونحل الشعر : ولا يريد الدكتور طه حسين بالسياسة المفهوم الحالي للسياسة ، وإنما يقصد بالسياسة العصبية القبلية ، وهو لا يتحدث عنها حديثاً شاملاً وإنما يكفي بمثالين :

العصبية بين المهاجرين والأنصار ، أو بعبارة أوضح قريش والأنصار ، ويذكر لتأييد رأيه روايتين

الاولى : ما يروى من أن عمر بن الخطاب نهى عن رواية الشعر الذي تهاجى به المسلمون والمشركون أيام النبي محمد "ص" ،

والثانية : ما ذكر من أن ابن سلام قال : وقد نظرت قريش فإذا حظها من الشعر قليل في الجاهلية فاستكثرت منه في الإسلام . وعقب عليه الدكتور طه بقوله : وليس من شك عندي في أنها استكثرت بنوع خاص من هذا الشعر الذي يهجي به الأنصار .

والمثال الثاني : فهي هذه الأشعار التي تمس تنقل امريء القيس في قبائل العرب فإنها نحلت حيث تنافست القبائل العربية في الإسلام وحين أرادت كل قبيلة أن تزعم لنفسها من الشرف والفضل أعظم حظ ممكن .

ثانيا : الدين : لم يكن النحل وقفا على شعر الجاهليين من عرب الإنس ، وإنما أضيفت إلى الجاهليين من عرب الجن، فقد روى الرواة شعرا قالتها الجن مفتخرة بمقتل سعد بن عباد :

قد قتلنا سيد الخز رج سعد بن عبادة

ورميناه بسهمين فلم تخطء فؤاده .

ونوع آخر من تأثير الدين في نحل الشعر وهو الذي يلجا إليه القصاص لتفسير ما يجدونه مكتوبا في القرآن من أخبار الأمم البائدة كعادٍ وثمود ، أضافوا إليه شعرا بل أضافوا شعرا إلى ادم فهم يزعمون انه رثى هابيل حين قتله أخوه قابيل .

ثالثا : القصص ونحل الشعر : كان القصاصون عاملا مهما في نحل الشعر ، ويمكن المتتبع أن ينظر في ألف ليلة وليلة ، وفي قصة عنتره وما يشبهها فسترى أن القصص لا تستطيع أن تستغني عن الشعر ، وقد نسج الرواة من الشعر الغث والسمين ، وفي سيرة ابن هشام وحدها دواوين من الشعر ، نظم بعضها حول غزوة احد ، وبدر ، وبعضها في غير هاتين الغزوتين .

رابعا : الشعبية ونحل الشعر : يقول الدكتور طه حسين أما نحن فنعتقد أن هؤلاء الشعبية قد نحلوا أخباراً وإشعاراً كثيرة وأضافوها إلى الجاهليين والإسلاميين ولم يقف أمرهم عند نحل الأخبار والأشعار ، بل هم قد اضطروا خصومهم ومناظرهم إلى النحل والإسراف فيه . وأنت تعلم أن أصل هذه الفرقة إنما هو هذا الحقد الذي أضمره الفرس للعرب .

خامسا : الرواة ونحل الشعر : وقد مر الحديث عنهم في موضوع سابق .

دوافع الشك عند الدكتور طه حسين

١- انه لا يمثل الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين :
فالحياة الدينية لا نجدها في الشعر الجاهلي .

أما الحياة العقلية والحضارية فهي غير واضحة في الشعر الجاهلي ، إذ ظهروا في جمهورهم كجماعة من البدو لم يتحولوا إلى طور فكري منظم .

أما الحياة السياسية أيضا لم تتضح في أشعارهم ، مع أنهم كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم

وعن الحياة الاقتصادية : يقول إن القرآن الكريم يصور حياة العرب مقسومة الى فريقين : فريق الأغنياء المستأثرين بالثروة المرففين في الربا ، وفريق الفقراء المعدمين الذين ليس لهم مال . لا نظفر بشيء ذي غناء في شعرهم يمثل هذه الحياة الاقتصادية . وفي الحياة الاجتماعية : ينتهي الدكتور طه حسين إلى أن هذا الشعر لا يعني الأحياء الصحراء والبادية ، ولا نكاد نجد ذكر البحر أو الإشارة إليه ، فإذا ذكر يدل على الجهل لا أكثر ولا أقل ، أما القرآن الكريم فيمن على العرب بأن الله سخر لهم وبأن في هذا البحر منافع كثيرة .

٢- الشعر الجاهلي بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية في العصر الجاهلي . إذ انه لا يصور اللغتين الشائعتين في الجزيرة لغة الحميريين الجنوبيين ولغة العدنانيين الشماليين . وقد استند إلى ما قاله أبو عمرو بن العلاء " ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا " . إذ ان هناك اختلافا جوهريا بين اللغة الجنوبية واللغة الشمالية ، والشعر الجاهلي لا يصور هذا الاختلاف ، ونستطيع ان نقرا هذه القصائد دون ان نشعر فيها بشيء في اختلافا أو تباعدا في اللغة .